

القصة العربية وسياسة التطبيع

نور محمد جمعة

الأدب العالمي والتطبيع:

تعتبر كلمة "التطبيع" من الكلمات المستحدثة سواء في اللغة العربية الفصحى أو على رأس قائمة أعمال النظام العالمي الجديد وعلى وجه التحديد في ساحة الصراع مع اليهود في فلسطين المحتلة إذ سعت في خلق "علاقات طبيعية وعادية بين اليهود والمسلمين على غرار أي علاقة بين طرفين في حالة سلام، وتربطهما علاقات مودّة واحترام تنتفي فيها حالة التناقض أو العداء بكافة مظاهره"^(١). وقد كان لهذه السياسة صدًى قويً في الأدب العالمي حيث استطاعت أن تغبّر مع الأيام معالم اليهودية التي ترسّخت في الحضارات الأولى كونهم "أكثر الشعوب شهوة وأقذر الأجناس فسقاً وأشدّ الناس تكالبا على الزنا والدعارة والعهارة والفجور، وقد اتخذوا من أعراض نسائهم تجارة يجمعون عن طريقها المال كما اتخذوا منها رشوة يصلون عن طريقها إلى تحقيق مطامعهم وأغراض نفوسهم، غير عابئين في سبيل ذلك بشرفٍ أو شريعةٍ، أو حرامٍ أو حلال"^(٢). ويعرف جميع قراء التوراة وحشّية اليهود التي لا أثر للرحمة فيها ... ففي سفر الملوك كان داود يأمر بحرق المغلوبين وسلخ جلودهم ووشرهم بالمنشار"^(٣). "وإذا أردنا تلخيص طبيعة ومزاج اليهود النفسي في بضع كلمات

١- غسان حمدان، التطبيع استراتيجيّة الاختراق الصهيوني، دار الأمان للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٩هـ/

١٩٨٩م، ص ٤.

٢- زكي شنودة، المجتمع اليهودي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص ٣٩٥.

٣- غوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة: عادل زعيترا، مطبعة حجازي، ١٩٥٠م،

ص ٤٧.

كما يستنبط من أسفارهم وجدنا أنه ظلّ على الدوام قريبا جدا من حال أشد الشعوب ابتدائية، فقد كان اليهود عُذدا مندفعين، غُفلا، سُدجا، جُفاة كالوحوش^(٤).

ولعل أول رواية إنجليزية لعب اليهودي فيها دورا بارزا هي رواية *The Unfortunate Traveller* "المسافر التعيس" التي كتبها Thomas Nashe "توماس ناشي" عام ١٥٩٤م وتحكي قصة طبيب يهودي يشتري المسيحيين الأحياء من يهودي آخر "لأغراض تشريحية".

أما رواية الكاتبة Frances Burney "فرانيسيس بورني" التي صدرت عام ١٧٨٢م تحت عنوان *Memories of an Heirs* "مذكرات وريث" فقد قدمت لنا اليهودي في ثوبها التقليدي كمقرض للمال، وقد جاءت تبعا لرواية Charles Grandison "جارلز جرانديسون" التي طبعت عام ١٧٥٣م وظهر فيها اليهودي الخليع سليمان ميرسيديا الذي لم تخل شخصيته من الرعب والغموض والثراء، وروايات Smollet Topias "سمولت توبياس"، ١٧٧١-١٧٢١م والتي بدأها برواية *The Adventures of Roderic* "مغامرات رودريك راندم" عام ١٧٤٨م، ولعب فيها إسحاق رابين دور السمسار اليهودي المعهود آنذاك في المجتمع الإنجليزي، وقد كانت نعمة الكاتب تابعة لمصلحة بلاده، فيوم أن ساند اليهود المجتمع الإنجليزي في أزمته المالية ظهرت الشخصية اليهودية في رواياته رقيقة ليئة بعد أن كانت شديدة كرهية. وعلى العكس من ذلك، صورت كتابات Henry Filing "هنري فيلنج"، ١٧٠٧-١٧٥٤م اليهودي في إطار سلبي للغاية^(٥). فصورة الشخصية اليهودية في الأدب الإنجليزي منذ بداياتها تحمل ملامحها الكوميديّة الشريرة المتعشّة للدماء والثارات والانتقام على نفس النمط الشكسبيرري. وإن كانت سمة الشخصية اليهودية عند شكسبير التي هي ملامح شيطانية، مستوحاة من الواقع الاجتماعي، مسيطرة على الأدب الإنجليزي، فقد طغت عليها سمات اليهودي التائه في الأدب الألماني، إذ أنه اعتمد على الرواية التراثية التي تصوّر السيد المسيح في طريقه للصلب وقد طلب من أحشورش - الجندي أو الإسكافي اليهودي - جرعة ماء لكنه رفض أن يسقيه وأهانته، فلعنّه السيد المسيح وحكم عليه بأن يظلّ هائما على وجهه للأبد، وبقي ذلك "اليهودي التائه" يضرب بقبضته في الهواء تجاه الربّ تحت لواء الشيطان الذي يتجه بأعماله كلها لإحباط الربّ واندماج في صراع النور والظلام.

٤- المرجع السابق، ص ٥٨.

٥- راجع: محمد جلاء إدريس، الشخصية اليهودية، دراسة أدبية مقارنة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ٦٢-٦٤.

تبرز معالم هذه الصورة بشكل أكثر وضوحاً في رواية "أحشورش اليهودي التائه" للأديب اليهودي الألماني ستيفان هايم ١٩٨٠م، الذي مزج بين الشيطان واليهودي التائه وفق رؤيته الخاصة. وقد كان اليهودي شخصية نامية في الرواية، لعب دوراً مزدوجاً بين متمرد ومحبوب في آن واحد، واختفت وراء أحداث الرواية تلك المعضلة المأساوية، التي لا حل لها وهي أن الإنسان عليه أن يناضل من أجل تغيير وجه الواقع في هذا العالم، ولكن المصير الدائم لهذا النضال هو الفشل الذريع عبر التاريخ، لذلك فإن روح أحشورش اليهودي التائه مازالت تتوق حتى الآن إلى التغيير^(٦).

ومن أبرز الكتابات الإنجليزية التي ظهرت في الربع الأول من القرن التاسع عشر رواية Gaston De Blondville "جاستون دي بلونديفيل"، ١٨٢٣م للكاتبة Radcliffe Annred "ردكليفي أند" عن اليهودي المقرض الذي دخل المحكمة ليبدلي بشهادته إلا أن الحاضرين احتجوا على ذلك، ولما كان معظم من بالمحكمة مديناً لهذا اليهودي فقد قبلت شهادته، وبالرغم من أن دور الشخصية اليهودية في الرواية كان محدوداً إلا أنه عكس ما لليهود من تأثير على المجتمع الإنجليزي وخاصة في مجال القضاء.

مع حلول الواقعية محل الخيال بقي اليهودي في مكانه السليبي في الروايات التاريخية مثل The Wandering Jew - اليهودي التائه - ١٨٢٠م للكاتب John Galt "جون جالت"، أما رائدة المدرسة الواقعية الكاتبة Maria Ewdgeworthe "ماريا إيجهورث" فقد كان موقفها من اليهودية واضحاً في روايتها Cwastle Rackrent "كواستل راكلنت" في ذلك التعبير الذي كان ينادي به الزوج اليهودية قبل الزواج "جيسيكا الحبيبة" والتعبير البديل له بعد الزواج "أيتها الإسرائيلية العنيدة" وتصويرها لليهودي الثري المرابي "مردخاي" في روايتها The Absentee "الغائب" التي ظهرت عام ١٨١١م وفي قصتها Blinds "العميان" التي ظهر فيها اليهودي شخصيةً مرابيةً تفتقد الرحمة في معاملتها وتفرض شروطها القاسية على المقترضين النصارى.

ولها كذلك Moral Tales "قصص الفصائح الأخلاقية" وفيها ثلاثة يهود أجلاف: سليمان الذي اتهم بالاحتيال وحكم عليه بكنس الشوارع حسب القوانين وهي تهدف في ذلك إذلال الشخصية اليهودية وإهانتها، والثاني وهو Grarat "جرارات" الجواهري الذي يحتال على تلاميذ المدارس باللواتاري، والثالث وهو Rachub "راجوب" المرابي اليهودي غليظ القلب الذي يحاول قتل أعدائه

٦- راجع: رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس، دار الهلال، ١٩٩٢م،

بنشر الجرائم المهلكة في الملابس القديمة التي يبيعها لضحاياها. ولم تقدّم هذه الكاتبة شخصية يهودية شريفة إلا في روايتها Harrington "هارينجتون" التي جاءت استجابة لرسالة تلقتها من قارئة أمريكية يهودية تلومها على تقديمها السلبي للشخصية اليهودية، فرسمت فيها صورة مضادة تماما لليهودي الدموي وانتهت إلى أن اليهودي إنسان كسائر البشر^(٧) وبهذا أخذت شخصية البطل اليهودي في الأعمال الأدبية الأوروبية تتحوّل من شخصية "شيلوكية" إلى شخصية جديدة، نتيجة لتأثير سياسة التطبيع في المجتمعات الغربية.

ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى شخصية من الشخصيات اليهودية المشهورة في الأدب الإنجليزي وهي اليهودي العجوز "فيجي" في رواية "أوليفر تويست" للأديب الإنجليزي تشارلز دكنز ١٨١٢-١٨٧٠م الذي رمز إلى فيجي بالأفعى السامة إشارة إلى أن الشيطان اتخذ صورة أفعى عندما أغرى آدم وحواء بارتكاب مخالفة الخالق العظيم، وتسبب في سقوطهما من الفردوس إلى الأرض. وفيجي اليهودي العجوز ينظر إلى الآخرين على أنهم حيوانات من شتى الأنواع، ويقدم الشخصية على أنها تجسيد لنزعة الشرّ والإجرام والفساد الخلقي ومفتقدة للأمان الذاتي ولديها رغبة ملحة مستمرة في إحداث أكبر قدر ممكن من الاختلال والإفساد والتخريب في المجتمع، قبل أن تنال عقابها المحتوم بانتصار إرادة الخير الإنساني على الشر الشيطاني^(٨).

ولما أخذت سياسة التطبيع حيّزا أكبر من الدعاية الغربية كتب دزرائيلي - قبل أن يصبح رئيسا لوزارة بريطانيا - روايته "دافيد آروي" يطرح البطل اليهودي الصهيوني المتعصب في قالب من الشعور بالتفوق والعنصرية، وعلى نقیض منه كتبت "جورج إليوت" عام ١٨٧٦م روايتها "دائيل ديروندا" واعتبرت فلسطين المكان الأوحده الملائم لتجمع اليهود من التيه، فاعتبرت الرواية ذات قيمة كبيرة في خدمة الصهيونية فترجمت إلى العبرية ووزعت في أوروبا وأعيد طبعها ونشرها حتى أصبحت كما يقول إدجار رودنبرج في كتابه From Shylock to Svangali "من شيلوك إلى سفان جالي" إنجيلا صهيونيا، وتقديرا لكاتبها أطلقت إسرائيل اسم "جورج إليوت" على أحد شوارع تل أبيب^(٩). وهكذا

٧- راجع: الشخصية اليهودية، دراسة أدبية مقارنة، ص ٦٥-٦٧.

٨- راجع: الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس، ص ٨٢-٨٥.

٩- راجع: أحمد السعدني، أدب باكتير المسرحي، المسرح السياسي، مكتبة الطليعة، أسبوط، ١٩٨٠م، ج ١،

ص ٢١٤-٢١٥.

أصبحت نظرية التطبيع التي ما كادت تجد صدًى في المجتمعات الغربية واقعا ملموسا يفتخر بها أنصارها على علن ومن غير استحياء.

ومع نهاية الثمانينات من القرن التاسع عشر ظهرت الشخصية - اليهودية الصهيونية - عدوانية شرسة تبحث عن الانتماء للإنسانية في ظل إحساس غامر بأن العالم بأسره يعاديها، ولذا فعليها أن تحارب لتخلق لنفسها وطنا دونما اكتراث بعدالة حقوق الآخرين أو إنسانيتهم. واعتبارا من مرحلة الاستيطان الصهيوني في فلسطين، وبالذات خلال فترة الهجرتين الثانية (١٩٠٤-١٩١٤م) والثالثة (١٩١٩-١٩٢٤م) بدأ التبشير بالنموذج اليهودي الجديد المتمثل في صيحة "آخر يهودي وأول عبري" والتي تمخّضت عنها بعد ذلك شخصية "الصبّار" اليهودي المولود في أرض فلسطين والمرتبب بها كوطن أم ولغته الأم هي العبرية" وهي الشخصية التي تبلورت من خلالها شخصية "اليهودي الإسرائيلي" (١٠).

وأبرز تصوير متعاطف مع الشخصية اليهودية - في ظل سياسة التطبيع - في أدب الربع الأول من القرن التاسع عشر والذي كان له أكبر الأثر في من تبعه من الأدباء الإنجليز هو شخصية "إسحاق أوف يورك" وابنته "ريبيكا" في رواية Sir Walter Scott "سر والتر سكوت" المعروفة باسم Ivanho "إيفانهو" والتي ظهرت عام ١٨٢٠م تصوّر ريبيكا مثيرة للشفقة ومحركة للإعجاب، فهي اليهودية ذات الشعر الأسود الجميل والعينين البرّاقتين، ذات الحياء، والشجاعة، لا تعرف الخوف واليأس، تواجه كل الشدائد بهدوء وإيمان، فهي نموذج للمرأة اليهودية في إخلاصها ودفاعها عن شعبها ودينها وشرفها و..، فقد وضع فيها المؤلف كل الجمال والخير الذي استطاع خياله الرومانسي أن يخلقه، كما سعى كذلك إلى صبّ شخصية الأب المرابي في قالب إنساني غير معهود، وأصبحت رواية "إيفانهو" نموذجا يُحتذى من قبل كتّاب آخرين أمثال Horace Smith في روايته Zillah of the Holy City - زيلاه في المدينة المقدسة - (٢/٢، ١٨٢٨م) التي لعبت دور البطل فيها Zillah "زيلاه" اليهودية الفاتنة، وبنفس المسحة العاطفية جاءت رواية Miriam "ميريام" عام ١٨٣٩م للكاتبة Charlotte Anley "جارلوت أنلي". كما جاءت في سبيل عرض روح التسامح والتعاطف تجاه اليهودي والإعجاب بشخصية المرأة اليهودية رواية The Benevolent Jew "اليهودي الكريم" عام ١٨٢٣م للكاتب George Waker "جورج واكر" حيث تقوم اليهودية بتمريض البطل المسيحي، بينما يقرض الأب أمواله

١٠- راجع: الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس، ص ٨٢-٨٥.

ويخصص أرباحه للفقراء من اليهود وغير اليهود، وهي صورة لا تجد لها سندا من واقع في التاريخ اليهودي على الإطلاق^(١١).

وفي مطلع القرن العشرين نشر "تيودر هرتزل" روايته "الأرض الجديدة القديمة" معترفا بأن هدف روايته لم يكن فنياً وإنما كان هدفاً دعائياً، وعلى نفس الوتر تأتي قيمة رواية "ليون أوريس"، "إكسودس" التي نشرت عام ١٩٥٩م وفاقته في انتشارها الكتاب المقدس، وهي رواية يعرفها اليهود أكثر مما يعرفون التوراة، إنه تقرير رسمي عن الكيفية التي أسست بها دولة إسرائيل^(١٢). وفي نفس الوقت تقرير رسمي عن نجاح سياسة التطبيع.

القصة العربية في ظل سياسة التطبيع :

وبما "أن الشاعر أو الكاتب أو الروائي هو لسان العصر الناطق وترجمانه الصادق، وأنه المعبر الأمين عن أحزانه ومسراته وأفكاره ومعتقداته، وأن دواوين الشعر أو القصص والروايات وسائر الإنتاجات الفنية وثائق تاريخية قيمة وسجلات وافية تتضمن وصف حوادث العصر ورجاله وطبائعه وخصائصه"^(١٣). وبما أن للفنان بصيرة أعظم وإحساس أرفه وإدراك بديهي مباشر فهو يرسم صورة صادقة لحياة أمتة وإن كان قد يسطو عليه شيء من المبالغة أو التشويه، غير أنه يبقى إلى حد كبير قابلاً للاعتماد عليه والرجوع إليه. وقد كثر احتكاك العرب باليهود بعد النزوح اليهودي إلى وطننا العربي المحتل فلسطين، ولا سيما بعد العقدين الأولين من القرن السالف، ولكن لا نكاد نجد صورة واضحة المعالم للشخصية اليهودية في كتابات تلك الآونة المبكرة إلى أن حدثت هزيمة ١٩٦٧م، فبدأت تلك الشخصية تظهر على خجل، تُقدّم رجالاً وتؤخر أخرى، إلى أن جاء دور إحسان عبد القدوس وعلي أحمد باكثير ونجيب الكيلاني فرفعوا القناع عنها ومزقوا الستر الرقيق الذي كان يغطيها، وذلك كرد فعل على همسات خفية لنظرية التطبيع في العالم العربي.

ظهر على خشبة المسرح السياسي السوري رواية المهرج لمحمد الماغوط و محاكمة الرجل الذي لم يحارب لمدوح عدوان و حفلة سمر من أجل حزيران لسعد الله، في وقت كان المسرح المصري يصور نشوء تناقضات داخل النظام في إسرائيل من خلال وطني عكا لعبد الرحمن الشراقوي و شمشون ودليلة لمعيين بسيسو و كيف رد الرابي مندل على تلاميذه لسميع القاسم، كما كان يعرض نماذج من

١١- راجع : الشخصية اليهودية: دراسة أدبية مقارنة، ص ٦٧-١٠٩.

١٢- راجع : أدب باكثير المسرحي، ج ١، ص ٢١٥.

١٣- أدهم علي، على هامش الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة، ص ٩٨.

الكفاح والمقاومة على خشبة المسرح متمثلة في النار والزيتون لألفريد فرج ومسرحية اليهودي التائه ليسرى الجندي^(١٤) التي انطلقت "من حادث إطلاق الشاب الفلسطيني سرحان بشارة سرحان الرصاص على عضو مجلس الشيوخ الأمريكي روبرت كيندي في الخامس من يونيو ١٩٦٨م، لتفتش في عقل هذا الشاب عن سبب ارتكابه هذا الحادث، فتصل - بالضرورة - إلى جذور القضية التي يدافع عنها بشارة، قضية فلسطين، أو قضية اليهودي التائه واليهودي الصهيوني والصهيوني غير اليهودي"^(١٥).

وقد كان قبل ذلك لعبد الحميد جودة السحار وقفة مع اليهودي في قصص من الكتب المقدسة ١٩٥٢م و أرملة من فلسطين ١٩٥٢م و وعد الله وإسرائيل ١٩٦٧م وفي روايته التاريخية القصيرة بلال مؤذن الرسول^(١٦) ١٩٤٤م إذ ظهر اليهودي الماكر الحسود يدبر مؤامرة يستحوذ بها على بلال فيحرم المسلمين منه ويأمن فتنته على إخوانه اليهود، واستطاع أن يرمي بلالاً في فخاخ نصّبها له، فقد عرض عليه دُبّاً في وقت شدّته وحاجته على أن يسدّه نهاية الشهر، وإن عجز عن السداد سيأخذه مقابل دينه. وانصرفت الأيام واختفى القمر من السماء إيذاناً بقرب انقضاء الشهر، والتأهب لاستقبال مولد شهر جديد، وقام بلال ليؤدّن بالصلاة، فإذا اليهودي مقبل في عصابة من التجار يهدد بلالاً بإرجاعه عبداً يرمى الغنم. لكن مكرّ اليهودي زال مكرّ الله، فعاد اليهودي يجر أذيال الخيبة والفشل بعد ما وهب النبي صلى الله عليه وسلم لبلال ما يسدّ دينه.

قدّم المازني صورةً لليهودي الواقعي كما عايشه داخل المجتمع المصري في رواية إبراهيم الكاتب ١٩٣١م عند معالجته للنزعة الطائفية في المجتمع اليهودي في عرضه لقصة حب المرضة اليهودية "الربّانية" التي ظلّت تعاني منه تسعة عشر عاماً مع يهودي "قرّائي" كانت أمّه ترفض زواجه من امرأة يهودية ليست من بنات الطائفة القرّائية، وكذلك قدّم صورة أخرى لطبيب يهودي قرّائي يدعى افرام يوافق على إجراء عملية إجهاض لفتاة تعرضت لتجربة حمل دون زواج، فيحاول

١٤- راجع: عرض هشام إبراهيم لـ: المسرح بين العرب وإسرائيل (١٩٦٧-١٩٨٣م)، سامح مهران، دار سينما للنشر، القاهرة، ١٩٩٢م، في مجلة الفصول المصرية. "اليهودي التائه" نشرت بمجلة المسرح، أكتوبر، نوفمبر ١٩٨٢م، ص ٨٣، ع ١٥.

١٥- عصام بهي، الشخصية الشريرة في الأدب المسرحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص ٢٦٠.

١٦- عبد الحميد جودة السحار، بلال مؤذن الرسول، مكتبة مصر، مايو ١٩٤٤م.

افرايم اليهودي ببراعته اصطناع صورة خشنة على حساب الفتاة في سبيل إبراز إثم الفتاة التي استسلمت للحظة الشهوة الجنسية^(١٧).

أما الروائي نجيب محفوظ فقد تحاشى الاقتراب من معالجة الشخصية اليهودية في المجتمع المصري رغم أن الساحة كانت تستدعي ذلك لواقع الصراع العربي الإسرائيلي الذي أصبحت مصر طرفاً فيه منذ حرب ١٩٤٨م وإن زعم أنه لجأ إلى معالجة القضية على مستوى تجريدي في رواية تحت مظلة^(١٨)، ولعل ذلك يوحي أن الصراع الدائر لم يكن قد تركت جذوره في نفس نجيب محفوظ، وأن العدو عنده كان صديقا، ولم يكن "الصراع" إلا "وثاما ووفاقا"، فلم يرشحه إلى جائزة نوبل إذن إلا تلك الأيدي اليهودية التي تلعب دائما وراء ستار المسرح^(١٩).

وخلافاً لموقف محفوظ كان موقف الكاتب غسان كنفاني^(٢٠) الذي خاض تجربة الصراع واكتوى بناره وجسد المأساة بالتركيز على أبعادها الإنسانية خارجا عن إطار القطرية إلى إطار العالمية في رواية رجال تحت الشمس، ليخرج القارئ بالانطباع التالي وهو "أن مأساة الإنسان التائه المعذب الحائر المطارد، يتجلى فيها الظلم الفاحش، حيث تبدو قيم الحضارة الحديثة وكأنها زيف وكذب ورياء. والقصة مثيرة غاية الإثارة، وتشحن النفوس بالغضب وتشعلها بالتمرد والثورة، وتحرض الإنسان - أي إنسان - على فعل شيء ما حسب طاقاته وقدراته، وتصفع وجه السياسات العالمية المراوغة وتسقط عن وجهها أقنعة التدليس والعبث والتمييز المخجل"^(٢١) فقد أخرج غسان ومن سار على نهجه القضية "إلى الدائرة العالمية الواسعة، ونقلوا قضية العصر من التخصيص إلى الشمول وأزاحوا عن وجهها أصباغ العنصرية والغوغائية والعزلة، واهتموا بعالم النفس ... نفس الإنسان المكبل المعذب المهضوم الحق، فأشعروا كل ذي ضمير في العالم بالإثم، وبلوروا لديه "عقدة الذنب" من جرّاء سكوته - أو ممالته للصهيونية كحركة غازية متعصبة كاذبة، تضرب عرض الحائط بكل القيم الإنسانية

١٧- المرجع السابق، ص ٩٣-٩٤.

١٨- المرجع السابق، ص ٩٦-٩٧.

١٩- راجع: الشخصية اليهودية دراسة أدبية مقارنة، ص ١٢٠-١٢١.

٢٠- رواي وصحفي فلسطيني، اغتالته أيادي المخابرات الصهيونية الأثمة في ١٩٧٢/٧/٨م، راجع: من التاريخ، مجلة فلسطين المسلمين، ع ٨، أغسطس ٢٠٠٢م.

٢١- نجيب الكيلاني، تحت راية الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٤، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ١٨٢-١٨٣.

الشريفة، تلك التي تحدد إنسانية الإنسان، وتعطي الحياة صفتها المثالية وتنفض بالحق والخير والحب والجمال” (٢٢).

وهناك أعمال متفرقة تتكاتف في وضع ملامح معينة للشخصية اليهودية مثل رواية عودة الأسير لمصطفى بهجت ١٩٧٣م و”يوميات طبيب مصري في حرب ١٩٤٨م” للدكتور حسان حتوت والرواية الوثائقية الخرز الملوّن لمحمد سلماوي ١٩٩١م، والتي تمزج بين مأساة نسرين حوري ومحنة الوطن، فهي تؤرّخ للحياة العاطفية للبطلة مثلما تسجل أهم الأحداث السياسية التي شهدتها الوطن العربي في فترة منتصف القرن الأخير من حرب فلسطين عام ١٩٤٨م إلى كامب ديفيد عام ١٩٧٩م (٢٣). في بداية الثمانينات تناول الأديب الإسكندري نعيم تكلا الشخصية من خلال مجموعته القصصية قفزات الطائر الأسمر النحيل سنة ١٩٨٣م، و مدينة فوق قشرة واهية سنة ١٩٨٤م والتي طبعها في إسرائيل ولم تحظ بأيّ عناية من النشر أو الاهتمام النقدي في مصر (٢٤).

وقد صب توفيق الحكيم السيرة النبوية في إطار فنيّ مسرحي، إذ كانت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم تخلب لب الحكيم منذ ريق الصبا، فهو لا يفتأ يردّد: ”عقيدتي دائماً أن شخصية النبيّ لها أثر كبير”، وقد جعل سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في محمد صلى الله عليه وسلم سيرة حوارية تبعد عن الخيال وتهاويل الفن، وتلتزم بالمصادر والأحاديث الموثوق بها، استخلص منها الحكيم ما حدث بالفعل، وما قيل بالفعل، وكأنّ ”الوثائق التاريخية والأقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة” (٢٥). وقد ظهر فيها اليهودي قبل الشعور بالخطر في لباس العالم المخلص والناصح الأمين ”سلوه عن الروح ... ما هي؟ فإن أخبركم بذلك، فاتبعوه؛ فإنه نبيّ! وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم!” (٢٦). ولما استقر أمر الإسلام وشعر اليهودي بالخطر وقد داهمه في المدينة ويكاد يشاطره السلطة بل يسلبها منه، غدروا به وكذبوه وحاولوا تعجيزه بالسؤال عن الساعة. ولما لم يفلحوا كفروا بالله، ”... ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وأنا عنه لأغنياء، وما هو عنّا بغني، أليس يأخذ منا الحسنه بعشر أمثالها؟ ... فهو ينهانا عن الربّا

٢٢- المرجع السابق، ص ١٨٣-١٨٤.

٢٣- راجع: الشخصية اليهودية دراسة أدبية مقارنة، ص ١٢٥.

٢٤- راجع: الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس، ص ٩٢-٩٣.

٢٥- محمد مصطفى، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العلوم العربية، ص ٢٩٩.

٢٦- محمد توفيق الحكيم، دار مصر للطباعة، ص ٤٦-٤٧.

ويعطيناه!" (٢٧) وبدأوا يستهزئون بالحق سبحانه وتعالى "صف لنا يا محمد كيف خلقه؟ ... كيف ذراعه؟ ... كيف عضده؟" (٢٨).

وعلى غرار الحكيم حذر أحمد الشرباصي في مسرحيته **مولد الهدى** من نوايا اليهود: "عبدًا المطلب: هؤلاء القوم هم مصدر شر للعالم، ولن يجدوا لهم نصيرا عندما تتكشف نواياهم الخبيثة. عبد المسيح: لقد تنكروا قديما لنبيهم، ولم يقنعوا بما جاءهم به من الخيرات، هذا ديدنهم، يعملون الشر حبًا في الشر، حتى لو تعارضت دنياهم التي يخافون أن تزول مع شرهم هذا فإنهم يطلبون سواها ... إنهم يريدون أن يسيطروا على العالم من طريق الغش والخداع..." (٢٩).

قصص المخابرات العربية:

تعدى الصراع العربي الإسرائيلي معركة السلاح إلى ميادين أخرى في الحياة، تلك سمة الصراعات الحديثة، إذ الإعلام والدعايات يقومان بأداء دور لا يقل خطرا وأهمية عن دور الرصاص؛ فقد ظهرت كتابات من وحي ملفات المخابرات ترسم صورة عن اليهودي والسياسات الصهيونية وتزعم أنها حقائق لا مراء فيها لتقف حجر عثرة في سبيل سياسة التطبيع، ولعل أبرزها هي كتابات عبد الله عيسى عن ملفات المخابرات الفلسطينية وصالح مرسي من ملفات المخابرات المصرية.

قدّم عبد الله عيسى روايات جاسوس مع وقف التنفيذ وحافلات الجهاد الإسلامي وفدائي في المخابرات الإسرائيلية وصقور الثورة الفلسطينية والمصيدة والجاسوس المدلل و الاختراق، يصور من خلالها صراع الأجهزة المخابراتية ودور العملاء المزدوجين والأساليب التي تتخذها وكالة الاستخبارات الإسرائيلية "الموساد" كمصائد تصيد بها العملاء.

ففي رواية الاختراق^(٣٠) التي تدور أحداث الصراع فيها بين ١٩٧٦م و ١٩٨٨م، يقع أحمد الشاب الفلسطيني فريسة تحت أنياب المخابرات الإسرائيلية بعدما وقع في فخاخ "الجنس" الذي دبرته له أجهزة المخابرات، وخوفا من العار وطمعا فيما يغدقون له من المال لعب دور عميل إسرائيلي

٢٧- المرجع السابق، ص ١١٤.

٢٨- المرجع السابق، ص ١١٦.

٢٩- مظاهر المسيحية واليهودية في الأدب المسرحي والروائي المعاصر بمصر، بيير ج. كاكيا (الدكتور)، تعريب؛ عبد الحميد شيحة، مجلة البحوث والدراسات العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، ع ٢٧، تموز ١٩٩٧م، ص ٢٤١-٢٤٢.

٣٠- عبد الله عيسى، الاختراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط/ ١، ١٩٩٠م.

في صف المقاومة إلا أن المخابرات الفلسطينية كانت أكثر ذكاء فرمته في غياهب سجون دولة عربية بعدما حملته بعض المخابرات لتبعده عن طريق عميلها المزدوج عدنان الذي استطاعت دسّه في صف المخابرات الإسرائيلية ومن خلاله جنّدت ضابطاً إسرائيلياً - جورج - برتبة "نقيب" وقد أسلم الضابط فيما بعد وتسمّى بـ: "محمد عبد الرؤوف". وقد كان سبب إسلامه ما شاهده من وحشية الصهاينة في تعذيب المعتقلين وما تقوم به الحركة الصهيونية من الاضطهاد والضغط على اليهود وحملهم على الهجرة وللوصول إلى أهداف معيّنة، وما تمارسه إسرائيل كذلك ضد المدنيين العزل في الأراضي العربية المحتلة.

أما صالح مرسي فقد تصفح ملفّات المخابرات المصرية وأخرج منها روايات الصعود إلى الهاوية و الحفار و دموع في عيون وقحة وأبرز أعماله رواية رأفت الهجان أو كنت جاسوسا في إسرائيل في ثلاثة أجزاء، وقد ظهرت على شاشة السينما تصوّر أن لا مستحيل إلا في قاموس الضعفاء، وأن الإنسان العربي يملك القدرة الفذة على تحقيق النصر الباهر في ميدان المخابرات.

وتظهر ملامح اليهودي في رأفت الهجان على أنه إنسان صاحب هدف وفكرة يضحّي في سبيلها بكل غال ورخيص، وأن "الجنس" (٣١) أو المرأة هي أخطر طعمة يهودية في شبكتها لصيد الآخزين ويقع المال في الدرجة الثانية. رأفت الهجان (٣٢) هذا يبدأ عمله في المخابرات المصرية ويجنّد للعمل في إسرائيل ويندمج في الحياة اليهودية، بل ويكاد يذوب فيها بشكل غريب، ويلعب دوراً كبيراً في السلك الصهيوني ليكون هو الشعبان في الكمّ إلى نهاية المطاف.

فتحي غانم (٣٣)

في ١٩٨٩م قدّم فتحي غانم رواية "أحمد وداود" في إطار الصراع العربي الإسرائيلي لتبيان حقيقة العلاقات العربية اليهودية وللكشف عن سوء الفكر الصهيوني والبحث في ملامح الشخصية

-
- ٣١- صالح مرسي، كنت جاسوسا في إسرائيل رأفت الهجان، أبو لولو للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ٣٢- هو رفعت علي الجمال المولود في دمياط عام ١٩٢٧م، الشاب المصري الذي دسّته المخابرات المصرية جاسوسا في الإدارة الإسرائيلية واشتهرت قصته فيما بعد، وكان مسجلاً في الدوائر الرسمية الإسرائيلية باسم جاك بيتون. راجع: الملف السري لرأفت الهجان، حسني أبو البزيد، الدار المصرية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- ٣٣- ولد فتحي غانم في القاهرة عام ١٩٢٤م، درس الحقوق وتخرج في جامعة القاهرة عام ١٩٤٤م، من أبرز كتاباته "الرجل الذي فقد ظله"، "الساخن والبارد"، "الأفيال" و"زينب والعرش" ورواية "أحمد وداود" وقد نشرت ضمن روايات الهلال، العدد ٤٨٦، يونيو ١٩٨٩م.

اليهودية. ترسم الرواية صورة واقعية للعلاقات العربية اليهودية في النصف الأول من القرن الحالي، أي قبل قيام إسرائيل، من خلال العلاقات الاجتماعية الوطيدة بين أحمد - رمز العربي في فلسطين - وداود - رمز الوجود اليهودي - وسارة شقيقة داود وحبيفة أحمد - رمز الانفصال اليهودي عن العرب - قبل قيام إسرائيل. تلك العلاقات التي بدت سرايا مع مجيء الفكر الصهيوني بقدوم المهاجرين الذين صُنِعوا في أفران ألمانيا الخاصة وقد كان شعارهم "كن أخي أو سأقتلك".

تصوّر الرواية تنازع العروبة واليهودية في نفوس اليهود العرب وكيف أنهم استهانوا بعروبيتهم ولفظوها وتمسكوا بيهوديتهم حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من هذا الطفيلي الجديد، وأصبحت الساحة سجلاً بين فريقين، يهودٍ يحاولون الإبادة، وعربٍ يحاولون الدفاع عن أنفسهم، فسارة هذه اليهودية العربية العطوفة الناعمة ذهبت حيث يتمركز اليهود الذين لا يحملون في صدورهم إلا كل حقد وكرهية للعرب ولا ينطقون إلا "بكلمة الرصاص" وعادت مسلحةً بالقنابل ومدججةً بالسلاح، وما زال أحمد العربي الساذج المغفل يراها طيبةً حنونةً، ولا يكاد يصدّقها وهي تصوّب بندقيتها في صدره وتضرب على وتر الحقيقة التي لا يريد أن يدركها أحمد؛ "... لكنني لو رأيتك في أية مناسبة قادمة تحوم هنا، فسوف أقتلك برصاص هذا المدفع قبل أن تقترب. إن مجرد الاقتراب من هنا كفيل بأن أرديك قتيلاً". فهي قد انسلخت من ذلك الجلد الفلسطيني الزائف إلى حقيقة شخصيتها المتجرّدة التي تركت أثر بصماتها في نفوس أتباعها، حتى في أحلك الأوقات، وسارة تفتش في جيوب صفوف الجثث المرمية أمامها لتتعرف على هوياتها وترى أحمد جثة هامة أمامها لكنها تصرّ على أنها لا تعرفه أبداً! كيف لا وهي ربيبة الإرهاب وقد تنكّرت لفلسطينيتها وعروبيتها، وما ذلك إلا ضرب من ضروب الخيانة المرتكزة في كيانها.

أظهرت الرواية أهم ملامح الشخصية اليهودية بين تلك الشخصيات التي عاشت فترة من الوثام الوطني المضروب عليها نتيجة الضعف اليهودي الذي سرعان ما انقلب صراعاً دامياً بعدما خلع الذئب جلد الشاة، وظهرت الشخصية في صورتها الحقيقية تحمل سماتها المعروفة من النفاق والجبن والإيقاع بين الناس واستخدام "الإغراء النسائي" لاصطياد الفريسة وتحقيق الهدف المنشود، كما يصف ذلك أحمد بقوله: "البنات في المعسكر يبتسمن لي، عيني عينك، إذا التقت عيناى بواحدة غمزت بعينها - وإذا اقتربت منها خطوة اقتربت منك خطوتين وإذا أردت منها قبلة أعطتك جسدها، وفي أي مكان، خلف السيارة لا يهم، وراء باب لا يهم، حجرة مكتب لا يهم، أينما تريد هذه الحرب فيها العجب ... عليك أن تحارب أجساد نساء، ليس فقط سلاحاً رجاليا ... لديهم أسلحة أخرى كثيرة".

وما أوردى أحمد قتيلا إلا تلك الخيانة والغرسة والإرهاب اليهودي يجانب ما للشباب العربي من الطيبة والسذاجة، فهو مازال يثق في صديقه داود ويتقدم إليه هادئا مطمئن البال لكنّه قبل أن يصل إليه "كان الشاب اليهودي ذو العينين اللامعتين الماكرتين يومئ برأسه إلى المارد، فرجع المارد ببندقيته وصوبها إلى ظهر الشاب العربي، والذي لم ير ما يحدث خلفه، وكان مشغولا برؤيته لداود لأمر ما بينهما، وخرجت الرصاصة من بندقية المارد، واخترقت الهواء تصفراً، وتصطدم بظهر الشاب العربي وتخرقه محدثة ثقباً حول احتراق يتدفق منه الدم غزيراً بينما يسقط الفتى على الأرض" (٣٤).

إحسان عبد القدوس (٣٥):

قدم إحسان عبد القدوس الشخصية اليهودية بعيداً عن سماتها التقليدية الشائعة في الآداب العالمية، إنما اليهودي عنده إنسان من وحي الشارع المصري لا تتردد على لسانه أي مشاعر للتمايز أو الإيمان بأشياء مقدّسة، ولا يشير في سياق حياته إلى "إله إسرائيل" أو الانتماء إلى "الشعب المختار" ويبدو وكأنه يهودي نسي ربّه، ويسعى إلى الاندماج، يهودي من صميم النسيج المصري، يفضل البقاء في مصر طالما أن الظروف الخارجية لا تضغط عليه من أجل الانسلاخ عن هذا النسيج.

إن إحسان عبد القدوس لم يصنع شخصياته داخل واقع ثابت ومتعين ليصدر عليها الأحكام بل يعالجها من خلال المتغيّرات الاجتماعية والسياسة التي مرّت بالمجتمع المصري على امتداد حوالي نصف قرن من الزمان "من الأربعينات حتى نهاية الثمانينات"، وهو يلمح أحياناً إلى أن شخصية اليهودي يستحيل فيها الفصل بين مؤثرات ورواسب التاريخ اليهودي في تكوينها النفسي، وبين الإشكالية التي خلّفها وجود دولة إسرائيل، كدولة يهودية، بالنسبة لمشاعر الانتماء اليهودي في داخله، وهو يحاول "في طرحه للشخصية أن يبحث عن الإنسان في اليهودي"، ولكنه لم يستطع فقَدّم اليهودي في الإنسان، أو بصورة أدق عرّى "اليهودي في اليهودي!".

٣٤- راجع: الشخصية اليهودية دراسة أدبية مقارنة، ص ١٢٧-١٧٥.

٣٥- إحسان عبد القدوس، أديب سياسي مصري، ولد في أول يناير عام ١٩١٩م، خلف ما يزيد عن ٦٠ رواية وكتاباً ومجموعة قصص تحول معظمها إلى أفلام سينمائية، ومن أشهر أعماله الأدبية: "الوسادة الخيالية" و "أنا حرة"، ١٩٥٢م، و "النظارة السوداء"، ١٩٤٩م، و "لا تطفئ الشمس" ١٩٥٦م، و "في بيتنا رجل"، ١٩٥٦م، و .. وقد وصف الكاتب المصري المشهور عباس محمد العقاد أدبه بأنه "أدب فراش"!، وقد كرمته الدولة بعد وفاته ومنحته جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٩٩١م.

وقد أظهر الشخصية اليهودية من خلال العديد من القصص والروايات مثل أين صديقتي اليهودية و الجاسوسة في مجموعته القصصية شفتاه و لا تتركوني هنا وحدي و أنا حرّة و كانت صعبة ومغرورة، إلا أن رؤية إحسان للشخصية اليهودية التي هي نابعة من معاشته لها في واقع المجتمع تظهر بوضوح أكثر في عمليين(٣٦):

الأول: رواية لا تتركوني هنا وحدي التي تحكي قصة حياة الفتاة اليهودية المصرية لوسيان هنيدي التي تنتمي لأسرة يهودية متواضعة تقيم في حي الظاهر تستولي عليها حالة من الطموح اليهودي لتصل إلى الطبقة الراقية اليهودية في مصر. وفي سبيل تحقيق طموحها اليهودي تستغل لوسيان سلاحها؛ الأنوثة والذكاء. وتبدأ في تحقيق الثروة، ولكن الثروة لا تحقق لها الاحترام فتلجأ إلى الزواج من أحد أقطاب الأرستقراطية المصرية المسلمة وتغيّر دينها وتعتنق الإسلام وتحقق طموحها بالصعود إلى الطبقة الأرستقراطية. وقيل نشوب ثورة يوليو ١٩٥٢م يموت زوجها وترث عنه ثروة طائلة ترى أنها في حاجة إلى الحماية في ظل الأوضاع الناشئة الجديدة وتسعى وتنجح في الإيقاع بأحد أقطاب الثورة من الضباط أصحاب السلطة والنفوذ وتتزوج ضامنة بذلك الحماية لها والأمان لثروتها. وخلال ذلك كله يتعقب إحسان وقائع حياة لوسيان هنيدي التي أصبحت بعد أن اعتنقت الإسلام تدعى زينب من خلال خلفية الأحداث السياسية والاجتماعية التي مرّت بمصر ومن خلال وقائع الحروب الإسرائيلية المصرية "حروب عام ١٩٤٨ و عام ١٩٥٦ و عام ١٩٦٧م و عام ١٩٧٣م" كاشفاً عن أبعاد ومغازي وحقائق الأحاسيس النفسية العميقة والدفينة في أعماق هذه الشخصية التي كانت منقوعة حتى النخاع في راسب دونما فكاك.

الثاني: قصة كانت صعبة ومغرورة التي نشرها عام ١٩٨٥م، أي بعد فتح الحدود بين مصر وإسرائيل، في أعقاب معاهدة السلام، وتدقّق الإسرائيليين - وخاصة اليهود المصريين الذين كانوا قد هاجروا إلى إسرائيل - لزيارة مصر ومناطق الذكريات التي عاشوا فيها قبل هجرتهم إليها.

وتدور أحداث هذه القصة حول قصة حب تنشأ بين ناهد الفتاة المصرية المسلمة وشريف الهنداوي اليهودي المصري، الذي لم يغادر مصر ولم يهاجر إلى إسرائيل، وظلّ يعيش فيها، وبالرغم من اكتشاف ناهد أن شريفاً يهودي، فإنها تقبل الزواج منه بعد أن وافق على اعتناق الإسلام ليحظى بها كزوجة. ونظراً لأن الظروف التاريخية لأحداث القصة سمحت لأفراد أسرة شريف من اليهود المصريين المقيمين في إسرائيل بالمجيء إلى مصر وزيارته ومن ثم دعوته لزيارة إسرائيل، فإن هذه

٣٦- راجع: الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبد القدوس، ص ١٥-٥٥ و ١٨١-٢٢٩.

التطورات السياسية الجديدة تصبح ، مرة أخرى ، فرصة أخرى لإحسان عبد القدوس ، لكي يؤكد رؤيته الراسخة في طبيعة الشخصية اليهودية التي لا يمكن لها أن تنسى انتماءها اليهودي حتى ولو اعتنقت ديناً آخر، لأنها تظل منقوعة حتى النخاع في راسب الانتماء اليهودي دونما فكاك منه .

نجيب الكيلاني(٣٧):

تَرصد قلم الكيلاني الأحداث التي تحكّمت في عالمنا المعاصر ووقف عند اليهودي طويلاً سواء في دراساته العامة أو في تصاويره الأدبية في قصصه ورواياته وشعره. وقد عُرف "اليهود بحبهم للمال، واقترافهم لجرائم الربا والاستغلال الفاضح، حتى أصبحت كلمة "المرابي" مرادفة لكلمة "اليهودي"، وأصبح المرابي من غير اليهود، يُنعت بصفة "اليهودية"(٣٨). كما أنه وجد أيديهم تستغل المذاهب الهدامة التي تتخذ من الجنس والنظريات النفسية الهشة عُشاً لها، في سبيل أهدافها المنشودة، ووجد أصابعهم الأخطبوطية تمسك بخيوط أجهزة الإعلام وتتسلل إلى دور النشر والمؤسسات الصحفية والإذاعية والتلفزيونية أمام أعين الناس في رابعة النهار(٣٩).

من أبرز أعمال الكيلاني التي تصوّر الملامح اليهودية وتكشف عن حقيقتها روايته الوثائقية دم لفطير صهيون وأخرى من وحي خياله عمر يظهر في القدس.

١- دم لفطير صهيون(٤٠):

تنقل الرواية تلك الحادثة المبررة التي أدمعت أعين دمشق عام ١٨٤٠م يوم أن كانت تحت حكم مصر أيام محمد علي باشا.

البادري توما قسيس إيطالي الأصل يتمتع بالجنسية الفرنسية، يقطن دمشق، وهو معروف بصلاحه وتقواه وله خبرات طبية يضعها في خدمة الناس ولا يريد بذلك أجراً ولا ينشد مجداً بين الناس وعيناه متجهتان دائماً صوب السماء، من أجل المسيح يعمل .. وفي سبيل التعساء من بني البشر

٣٧- أديب وروائي مصري، ولد عام ١٩١٣م، وهو من أوائل الداعين إلى "الأدب الإسلامي" وقد حاز على جائزة القصة القصيرة وجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب في الرواية. قدّم عدداً من الروايات الإسلامية كنماذج للأدب الإسلامي منها: ليالي تركستان، عمالقة الشمال، عذراء جاكرتا، عمر يظهر في القدس، ورحلة إلى الله.

٣٨- نجيب الكيلاني، الإسلام والقوى المضادة، مؤسسة الرسالة، ط/ ١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ٤٩.

٣٩- راجع: المرجع السابق، ص ٤٧-٥٧.

٤٠- نجيب الكيلاني، دم لفطير صهيون، دار النفائس، بيروت، ط/ ٧، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

يجاهد .. ويرى في السعادة التي تتدفق بين حنايا ضلوعه ثوابه الكبير .. وله أصحاب من اليهود يقطنون تلك الحارة اليهودية التي "تتلوى كثعبان كبير .. في جوفه الجواهر .. والقطع الذهبية .. وزجاجات الخمر، وغانيات يلعبن بالنرد ويرقصن رقصات غجرية .. وحاخامات يتحدثون عن الفطير المقدس .. ودم المسيحيين .. وعيد الفصح الذي اقترب .." لكن توما الطيب لا يدري عن كل ذلك شيئاً، فهو موزع بين العبادة والقراءة ومعالجة المرضى و "داؤد هراري" أو "اليهودي الصالح" التاجر اليهودي الثري صديقه الوفي وأخلص خلصائه يجالسهم ويتناقش معه أمور الدين والدنيا في رفق ولين ويرشف معه قذح القهوة التركية كما يتبادل معه الملح والطرائف في مودة لا مثيل لها.

وصاحبه هذا ليس إلا شيخاً هرماً اتخذ فتاة فائقة الجمال مملوءة شهوة وحيوية زوجاً له وقد فشل في إرضائها فبدأ يبحث عن إكسير القوة الذي دلّه عليه الحاخام "موسى أبو العافية" وما هو "إلا الفطير المقدس، فطير عيد الفصح.."، "دم المسيحي الممزوج بالدقيق له فعل السحر"، هذا فقط ما يمكن أن يرضي كاميليا اللعوبة التي تملأ كأس شهوتها من ماء خادمها مراد في غياب زوجها.

تتكون عصابة مجرمة تحت ستار الخيانة السوداء والغدر العشوم في همس مكتوم - وكلهم ممن له صداقة ودية معروفة مع الأب المسيحي توما - تحت مظلة المصلحة، فسليمان الحلاق يكره توما لأنه يسد أمامه باباً من أبواب المال، فهو يجيد "فصد الدم" ويملاً فراغ الطبيب وقت الحاجة، لكن توما الطبيب الحاذق يعالج الناس ولا يتقاضى أجراً، ومراد خادم داود يعشق "استير" خادمة البيت ويضحى في سبيلها بكل شيء حتى وإن كان ذبح توما الصالح! وفي لحظة غفلة هاجت البحار و "ماجت واشتعلت أمواجها نيراناً وكشّر الصديق الحميم اليهودي الصالح داود - ومعه أصحابه الحاخام موسى أبو العافية والحاخام سلانكلي وهارون وإسحاق ويوسف هراري ولينبادو - عن أنياب الغدر"، وانقلبت سحنته الطيبة إلى سحنة شيطان شرير واقترب منه يريد أن يفترسه. و "كان الرجال السبعة يضحكون ويمرحون ويغنون، بعضهم كان يرقص طرباً .. هذه الطقوس ضرورية كما في الديانة .. وكانوا يفعلون أشياء كثيرة ليزيدوا في ألم البادري توما .. وكان الرجل يئن ويتوجع بصوت حبيس لأنهم كمنوا فاه .. وقالوا له "كن متأماً كما كان الناصري (عيسى) معلقاً على الصليب .. وليتحصل هذا العذاب لجميع أعدائنا"، وفي الحجرة المجاورة وقفت شخصية المرأة اليهودية و "الفرح المجنون يرتسم في وجهها المكتنز المحتقن وقالت: أسمعون الأئين؟ اضحكوا واسعدوا .. دقوا الطبول وارقصوا ورددوا أجمل الأغاني الدينية .. هذا يوم المنى .. أسعد أيام العمر ..". وكانت كاميليا زوجة داود تلف حول وسطها شالا حريريا ثم ترقص في الحجرة الواسعة، وسرعان ما تماوجت حركاتها مع

تصفيق الأيدي، ودقات الدفوف، وانتشى الأطفال الذين لا يعرفون ما يجري بروعة ما يشاهدون، فأخذوا يشاركون فيه في بلاهة، ويضحكون ويمرحون ويقلدون النسوة".

تنكشف الفضيحة وتثبت الجريمة على اليهود وتعترف الفئة المجرمة بالجريمة النكراء، ويكاد حبل المشنقة العادلة يقتص لتوما المظلوم إلا أن دسياسة أخرى تدق أبواب السلاطين ومعها خمسة آلاف دينار عثماني ذهباً في كيس الرشوة اليهودية - سمة أخرى من الشخصية - و "القصة قديمة .. الصراع بين الذهب والمبادئ .. الأنبياء وأتباعهم هم الذين استطاعوا بقوة المبادئ أن ينتصروا على إغراء الذهب، وما أكثر المعارك التي تكون فيها الغلبة للذهب .. توما ضحية العصر المنهار الذي يحكمه الذهب لا القانون .. توما الذي انتصر على سلطان الذهب القاهر، استطاع الذهب في النهاية أن يهدر دمه، ويضيع القصاص، ويسحق العدالة، ويلوي أعناق الحكام الكبار ..".

٢- عمر يظهر في القدس (٤١):

رواية عمر يظهر في القدس إيماءً فنيًا وتصويرًا تتداخل خيوطه مع حديث عيسى بن هشام للمويلحي التي تعتبر نقطة انطلاق للرواية العربية المعاصرة، فهي تشترك مع حديث ابن هشام في الفكرة النقدية والمقابلة، "المقابلة بين عقلية الباشا الذي قام من الأموات ليجد الدنيا تغيرت من حوله، فماتت قيم جميلة كان ينبغي لها أن تظل حية، وقامت قيم جديدة يُشك كثيرًا في استحقاتها للبقاء. ومن التصادم بين عقلية الباشا القديمة، وعقلية معاصريه الجدد، ينتج المويلحي نقده الاجتماعي الطريف" (٤٢)، كما يحاول الكيلاني أن يوقظ الروح التي كَلَّت وكادت أن تموت في جسد الأمة المنهارة نفسياً والتي ركنت أمام عدوها بما كسبت أيدي أبنائها.

والصيغة الفنية والسر القصصي الذي يعتمد عليه "الكيلاني" لنقد الواقع ورؤيته من خلال منظار لم يتراكم عليه غبار الحضارة الزائفة تربطه برواية أخرى علمية شهيرة، ولعلها أعظم ما استخدم من هذه الصيغ الفنية بالذات من الروايات، تلك هي دون كيشوت، في رواية سير فانتيس التي نجد فارساً قلبه وعقله مليئان بالأحلام، أحلام عصور جميلة ماضية ترفض أن تموت كما أن الروح التي تحيا بين جنبي عمر حية تنبض بالحياة عند الفدائيين ومكبولة وراء قضبان الكتب في المكتبات، وقد تطفو إلى الحياة في أية لحظة، يصحب دون كيشوت أحلامه الخالدة هذه، ويصحب تابعاً، وجواداً هزيباً وحماراً ويذهب الجميع في رحلة بحث.. بحث عن الجمال والحق اللذين ماتا في

٤١- نجيب الكيلاني، عمر يظهر في القدس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤٢- علي الراعي، دراسات في الرواية المصرية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٩م، ص ١٢-١٣.

المجتمع المحيط بالفارس، وإن لم يموتا في قلبه، كما قاد عمر الفدائي المضطرب والفتاة اليهودية اللعوبية في رحلة بحث عن الحقيقة التي يجب أن تعيش والحضارة التي يجب أن تحيا والأخرى التي يجب أن تعود إلى مكانها تحت أنقاض ركام النسيان، "ومن المفارقة المضحكة المؤلمة بين واقع المجتمع وواقع "دون كيشوت" - [أي] عمر - يستخرج المؤلف بعضاً من أعمق مؤثراته الفنية، ويستحدث كثيراً من أروع وألذع نقداًته"^(٤٣) التي يكمن فيها ما يراه المؤلف من بث الروح في ذلك الخيال الجميل ليكون واقعا حياً، وقبض الروح من الواقع القبيح الذي ينبغي أن يموت، هذا هو الدرس الذي يحاول الكيلاني وصاحبه "سير فانتييس" و "المويلحي" الوصول إليه.

جاء عمر من وراء السنين ليرى ويقول .. وليس له رصيد سوى الكلمة .. في زمن "كل شيء تغيير فيه، أصبح الرجال غير الرجال، والمبادئ غير المبادئ، ومال ميزان القوة، وأصبح المسلمون مستعبدين .. وفقد كل شيء إلا الأمل .. وانتشر الفساد، فهناك "تحت الشجرة جلس فتى وفتاة، وكانت يد الفتى تطوق عنق جارتها الفاتنة ذات الشعر الذهبي، ورأسهما متلاصقان، ويدها في يده الأخرى، ونظراتهما تقطر رقة ونشوة، لا يكادان يشعران بما حولهما، يهيمنان في دنيا حلم رقرق جميل، وأمامهما زجاجة بها سائل قاتم اللون وكأسان"، طقوس الحب أم انحطاط، لا يرضاه عمر ويثور على هذا الواقع وإن كان يهودياً فلا ينبغي أن يكون على أرضنا الموعودة.

هذه الثورة التي أجهفت حرية الفتاة اليهودية راشيل، لم يجعلها تكره عمر الثائر بل أصبحت تحبه وتعشقه، وجرت وراءه تاركة فتاها إيلي من أجل عمر الذي سيقودها إلى المال والشهرة، لا بد من استغلال هذه الفرصة قبل أن تموت" .. إن شققتنا حقيرة لا تليق، والشارع الذي نعيش فيه ضيق مزدحم باليهود الشرقيين الأقدار .. إنني أحلم بحي راق .. بيت فخم .. تحوطه حديقة وأزهار .. ورصيد ضخم بالبنك .. ومشروعات تجارية كبرى ..". وهي ترسم خطة مآكرة لسوق عمر إلى خدمة المصالح الصهيونية واليهودية وتظهر الإسلام وتلبس الحجاب لتقصر الطريق؛ "وتزول العقبات حتى نبلغ مأربنا .. وذلك عن طريق الثقة التي أنالها لديه .. إنني أعرف كيف أؤدي واجبي من أجل إسرائيل الكبرى .. وراشيل مستحيل أن تخون كفاح الأجيال الطويل من أجل صهيون .. أمير المؤمنين يظن أنه امتلكني .. أنا التي ستمتلكه .. عندئذ تتعري الأذوبة الكبرى، ويسفر وجه الحقيقة..".

لكن الدولة اليهودية قد تضحى بالفرد من أجل مصالحها فهي تفتعل في الإعلام صورة شائنة من أمير المؤمنين وراشيل في سبيل تلويث سمعة الرجل وتحطيم هيئته "تلك بداية الخلاص منه .. لسوف نتبعها بخطوات أخرى .. أننا سنشيع عنه أنه "عميل صهيوني" يخدم أهدافنا المشتركة مع أمريكا!!! .. سيكون ذلك قنبلة الموسم .. ولكي نحبك الخطة، فسوف نغرقه بالهدايا والاحترام، وسيقوم أحد كبرائنا بزيارته سراً، لكن الزيارة السرية سيعرفها الناس بطريقتنا الخاصة، كي تكون أشد إثارة وتأثيراً..".

هذه المبالغات والأكاذيب التي رسمها خبراء مدرّبون من علماء الفلسفة والنفس والمخابرات والأحبار تشي بخبث اليهود وتضع ملامح الشخصية اليهودية في العراء. لكن أمير المؤمنين يختفي كما ظهر بعدما أبقى أفواه العالم فاعرة تبحث عنه، كتب البعض أن "أخبار غير مؤكدة تقول إن الخليفة المزعوم" شوهد داخل أحد المعسكرات الفدائية في الضفة الشرقية.. "وقال آخرون "إنه في كل مكان .. إنه ليس مجرد جسد .. هو فكر وعقيدة .. إنه إيمان ..".

بعد هذه الرحلة في عالم الأدب العربي نصل إلى أن سياسة التطبيع وإن كانت قد استطاعت أن تأخذ حيزاً كبيراً من مساحة الإعلام والدعاية المدعومة، ومن ألسن بعض الساسة في عالمنا العربي إلا أنها فشلت في ترسيخ دعائمها في الشعب العربي المسلم الذي يقف في واجهة الصراع وبالتالي في الشعوب الإسلامية كلها وذلك في إطار وِحدويّة الجسد الذي إذ اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى.

بيد أن عناصر القصة لم تكتمل بعد، فما زالت العقد تتوالى والرواية تنتقل من ليلة إلى أخرى لتكمل مسيرة ألف ليلة وليلة علّها تقف في النهاية في عالمنا الإسلامي على نفس المنصة التي وقفت عليها في العالم الغربي، حيث أصبح التطبيع هناك واقعا لا غنى للحياة عنه، بل أصبح اليهودي هو صاحب المال والقرار والكلمة في تلك المجتمعات. والله المستعان.

* * * *